٢ ـ التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

أرى واجباً عليّ قبل المضي في موضوع هذا المقال أن أبدأ باستدراك لا بد منه . فقد عاب عليّ بعض أصدقائي من المفكرين أني أنكرت فيما كتبت ناحية ذات شأن من نواحي الحياة في مصر ولم أعرها التفاتاً . ويعتقد هؤلاء الأصدقاء أن لتلك الناحية خطرها في صبغ الحالة الاجتماعية في مصر بصبغة خاصة . ولو أنهم عنوا بتلك الناحية شيئاً غير الأزهر إذن لكان لنا يعيبون به عليّ من الوزن قدر غير يسير ؛ أما وأنهم يعنون الأزهر ويقولون بانه معسكر ثالث من معسكرات العوامل المؤثرة في الحالة الاجتماعية في مصر، ينبغي لنا أن نحسب حسابه ، وأن نتناوله بالتحليل والنقد ، وأن نزن أثره في تكييف الحالات الاجتماعية ، فأكبر ظني أني لن أسلم برأيهم مهما ساقوا في سبيل اثباته من بينات . ذلك بأن بينة واحدة تكفي لهدم جميع ما يقيمون من دلائل ، فان القوى التي تؤثر في حالة اجتماعية بعينها ، إنما هي القوى الموجبة لا القوى السالبة ، والأزهر ، ولا شبهة ، قوة سالبة . قوة اتجهت بكل ما فيها من عوامل الحياة إلى الأخرويات لا إلى الدنيويات

وأنت ترى في كل الأطوار التي تقلبت فيها الأمم منذ بداءة العصر الانتاجي الحديث أن القوى السالبة فيها انحصرت في فئتين : الأولى رجال الدين ، والثانية رجال الحكومة ، وهما بما فيهما من صفات السلب والمحافظة كانتا في كل الحالات دريئة طالما حمت جسم المجتمع من كثير من الهزات العنيفة والانقلابات الخطيرة التي يجنح اليها الغلاة من المصلحين أو السياسيين ، وإن لهذا الموضوع لظرفاً آخر غير هذا الظرف قد يتاح لنا فيه أن نبحثه بحثاً أوفى

* * *

فرغنا في مقالنا الثاني من الكلام في التطفل الاجتماعي وأحطنا ببعض ظواهره ، وأثبتنا أن هذه الظاهرة تنخر في عظام مجتمعنا كما ينخر السوس الحب . واليوم ننتقل إلى ظاهرة اجتماعية أخرى ، لا تقل عن ظاهرة التطفل الاجتماعي فعلاً وأثراً ، تلك ما أسميه ظاهرة « الرجعية » ، ولا أعني بها رجعية فكرية أو سياسية أو غير ذلك ، فلو أنها كانت من هذا الطابع لهان الخطب ، ولما أعرتها كبير اهتمام . ذلك بأني أعتقد أن بعض ظواهر الرجعية ، كالرجعية الفكرية أو السياسية ، وما يجري مجراها ، تحمل في تضاعيفها أسباباً تولد قوى ارتقائية ، وإنما أعني بها الرجعية الاجتماعية ، وأكبر ظواهرها عزوفنا عن التفقه بفقه ثقافتنا التقليدية

ولا مرية في أننا نحتاج الى تعريف هذه النظرية الجديدة التي نسوقها اليوم لتكون أساساً في علاج حالات اجتماعية بعينها . بل نقول إن بعدنا عن درس هذه النظرية كان سببا من الأسباب الرئيسية التي هيأت المقتضيات الأولية للشعور بأننا قد أقدمنا على أزمات اجتماعية قد تكون في المستقبل بالغة منتهى الخطورة

أما ما نعني « بالثقافة التقليدية » فمجموعة الحالات والملابسات التي ينشأ شعب من الشعوب مكتنفا بها من حيث

الغربية واستعادة ولايتي الالزاس واللورين

ونستطيع أيضاً أن نقدر أهمية النتائج الخطيرة التي تترتب اليوم على إنكار ألمانيا لنصوص معاهدة الصلح ، ونصوص ميثاق لوكارنو ؛ فهي تحطم اليوم آخر أغلال فرساي العسكرية وتحقق سيادتها العسكرية كاملة في منطقة الرين ، وتواجه خصيمتها القوية (فرنسا) فيما يتعلق بوسائل الدفاع عن حدودها وجهاً لوجه ؛ ثم هي تعلن ضمناً أنها لا تقبل الأوضاع والحدود المقررة لحدودها الغربية ، وأنها في حل من أن تعود غداً إلى المطالبة بالالزاس واللورين

هذا وسنعرض في فصل آخر إلى البواعث والأسباب التي تذرعت بها ألمانيا لتحقيق غايتها وإلى الآثار الدولية التي يمكن أن تترتب على تصرفها

(* * *)

(للبحث بقية)

طبيعة الأرض والإقليم ، وما يتطلب ذلك من العكوف على فن خاص من فنون الحياة . وبمعنى أوسع تدل الثقافة التقليدية على العناصر التي ورثها شعب من الشعوب على مدى الأزمان من طريق التأثر الطبيعي بالبيئة والمحيط ، كما تدل على مجمل ما نبت في عقليته بالقاح السُلالي من عادات وأساطير وعلوم وآداب ، نشأت بنشأته في مرباه الأصيل . وعلى الجملة نقول إن الثقافة التقليدية لشعب من الشعوب إنما هي في الواقع جماع ما ورث من صفات حيوية ومعتقدات وفنون عن أسلافه الأولين

وما كان لشعب من الشعوب أن يحاول الافلات من أقطار ثقافته التقليدية إلا وباء بالفشل المحقق فيما يحاول . ذلك بأن الثقافة التقليدية هي الأصل الذي يرتكز عليه الطبع الماثل في أخلاق الأمم وطرق سلوكها في الحياة . وما قولك في ثقافة يرتشفها الطفل مع ما يرتشف من لبن أمه وهو رضيع ويشب مكتنفاً بها إذا يفع ، ويفتن بفتونها إذا تفتّق ، ويغرم بها إذا اكتهل ، ويموت وهي مرتسمة في تصوراته جميعاً إذا هرم . لا مرية في أنها تصبح جزءاً من طبعه وركناً من أركان نفسه ، بل إن شئت فقل إنها الركن الأصيل في حياته النفسية والعقلية ، وما عداها توابع لها ولواحق بها . وإنما تتأثر التوابع بالأصل ، وتتكيف اللواحق بالأرومة ، فما من ثقافة حديثة تضاف الى ثقافة تقليدية إلا وتكيف الدخيل تكيفاً يتابع فيه ما يحتاج اليه الأصيل من ملابسات . مثل ذلك أن الطبع المصري ، وإن شئت فقل « المصرية » ، لن تنسخ منها الأوروبية شيئاً إن هي احتكت بها ، وإنما تتكيف « الأوروبية » بعوامل « المصرية » إن هما تنافستا في ميدان واحد . وليس في ذلك أي خطر على كياننا التقليدي . ولكن الخطر كل الخطر في أن نضعف من مصريتنا بالبعد عن ثقافتنا التقليدية فتكمن في تضاعيف النفس ولا تظهر إلا ضعيفة منهوكة ، ونقوى من « الأوروبية » فنأخذها غير مكيفة بمقتضيات ثقافتنا التقليدية . ناهيك بأننا لسنا أوروبيين بالدم والتقاليد ، فلا نستطيع أن نفهم من روح الأوروبية على ما يفهمها الأوروبي إلا ظواهرها الكاذبة ، فنصبح وقد قمعنا مصريتنا من ناحية ، ولحقنا عقولنا «بالأوروبية» من جهة أخرى . وما كل هذا إلا طلاء خادع ومن ورائه تختفي الحقيقة التي يجب علينا جميعاً أن نفطن اليها ، وأن ندرسها أوفر الدرس ، وأن نكب على تفهم روحها أقوم فهم ، حتى نستطيع أن نهيء للأجيال الآتية سبيل التكيف بروح العصر تكيفاً مطابقاً لثقافتنا التقليدية ، فنخطو بثبات نحو حالات اجتماعية أثبت من حالاتنا الحاضرة . وفيما تقدم من شرح مجمل ما نعني « بالرجعية الاجتماعية » : فهي قمع لمقتضيات التكيف بثقافتنا التقليدية من طريق الفصل بين هذه الثقافة الموروثة وفنون الحياة في العصر الحديث

تتصل ثقافة الشعوب التقليدية اتصالاً وثيقاً بحالاتها الماشية أولاً ، فاذا استكملت هذه الثقافة الأسس الماشية التي تعين الشعوب على البقاء ، أثرت هذه الثقافة تأثيراً آخر في مزاج الشعب ، نهايته أن تتكيف فيه أشياء ثلاثة هي في الواقع ظواهر هذه الثقافة . الدين واللغة والفن ، وفي هذه الأشياء جماع ما يتجلى لناظريك في الأمم من الخصائص الأخرى كالخلق والحالات النفسية والشعورية إلى غير ذلك

ولا بد لنا من أن نضرب بعض الأمثال لنفصح بعض الشيء عن حقيقة هذه النظرية . فالبداوة مثلاً ثقافة تقليدية لكل القبائل التي تعيش متبدية ، وجميع ما يتصل بالبداوة أس من الأسس التي تقوم عليها ناحية من نواحي الحياة في أهل البدو ، والبداوة لأهل البادية بداية الحياة ، لأن فيها تتجلى روح القبيلة التي بها تحتفظ الجمعية ببقائها وتصون كيانها ، ومن مجموع التصورات والادراكات التي تتمثل لأهل البادية تنشأ الفكرة الدينية ثم تنشأ اللغة ثم ينشأ الفن ، ومن بعد ذلك تتحور الأخلاق فتأخذ طابعاً خاصاً ، ومن ثم يتكون قانون العرف البدائي ، وهلم جرّا . فهل من المستطاع مثلاً أن تنفك جمعية طبيعتها البداوة عن كل ما توارثته على مدى الأجيال ، وتنسلخ عن كل ما انتقل اليها عن أسلافها الأقدمين ، فتلبس من الأخلاق ثوباً جديداً وتتبدل من التصورات والأفكار والأخيلة والعقائد واللغة والفن غيرها مما لا علاقة له بثقافتها التقليدية ، ثم تستطيع بعد ذلك أن تحتفظ بكيانها الأصيل من غير أن يهز ذلك التغير الطارىء أعماق وجودها هزاً عنيفاً شديداً ؟

كذلك الحال في أمة أخرى ثقافتها التقليدية صناعية كانجلترا

أو فرنسا مثلاً . فان انفكاك أمة منهما عن الصناعة معناه تحطيم روحها الموروث ، بل ولكل ما تقوم عليه حياتها أدبية ومادية من القواعد الأصيلة فى نفسيتها وغرائزها . وأظن أن المصريين لا يخرجون عن مقتضى هذه القاعدة . فان لمصر ثقافة تقليدية هى الثقافة الزراعيـة التى ورثناها بحكم وجودنا على ضفاف النيل . وواجبنا كأمة رشيدة أن نقيم كياننا أصلاً على أساس هذه الثقافة الموروثة ثم نكملها بمقتضيات ما يتطلب هذا العصر من ضروب الثقافات الأخرى . أما عكس هذه الآية ، وذلك ما ننتحيه الآن مع الأسف ، فنهايته الخراب العاجل والدمار الشامل

إن ما يزرع من أرض هذا الوادى الخصيب فى هذا الزمن جزء قليل مما يمكن استغلاله ، ولـكنه على قلته لا يستغل الاستغلال الوافى ، ولهذا أسباب يطول بنا شرحها ، وإنما نذكر ذلك لنقول بأن كل عاطلى هذا الزمان إنما هم عاطلون بحكم الثقافة التى تلقوها وبحكم الظروف التعليمية التى نشأوا محوطين بها ، وإن بلاداً كمصر تستطيع أن تعضد من السكان ضعف ما تعضد الآن ، من العجيب أن تقوم فيها مشكلة تعرف بمشكلة البطالة ، وان تؤلف فى سبيلها اللجان ، وتعصر الأفـكار ، وتسهر الأعين الليالى الطوال ، ونصف الأرض المزروع فيها يكاد يكون بوراً ، والنصف المزروع لا يغل أكثر من نصف ما يجب أن يغل إذا أحسن القيام عليه بالطرق العلمية الحديثة ، وأكبر ظنى أن السبب المباشر فى قيام هـذه الحال إنما يرجع إلى أننا نسينا أن لنا ثقافة تقليدية يجب أن تـكون أساس الحياة فى هذا الوادى . وإذن يجب أن تقوم سـياسة التعليم أول شىء على فكرة الاتصال بثقافتنا التقليدية

لقد مضينا حتى الآن نقيم قواعد التعليم على النظريات ، لا على طبيعة بلادنا . لهذا نرى أن كل النتائج قد اتجهت اتجاهاً سلبياً ، لا اتجاهاً إيجابياً وعكس ذلك ما نطلب أن يكون

حدث فى مصر مشكلة عرفت بمشكلة العاطلين من المتعلمين ، وما من سبب لهـذه المشكلة فى الواقع إلا السياسة التى جرى عليها التعليم فى بلادنا بالفصل بين ثقافة أولادنا التى يتلقونها بين جدران المدارس وثقافة آبائنا الأقدمين . وحدث فى مصر أن انشقت معسكرين لا اتصال لأحدهما بالآخر ، معسكر المتعلمين العاطلين الذين لا اتصال لهم بثقافة بلادهم التقليدية ، ومعسكر الفلاحين الذين اتصلوا كل الاتصال بثقافة بلادهم الأصلية ، من غير أن يلقحوا بشىء من مقتضيات الحياة فى العصر الحديث . وبدأت فى مصر روح التبرم بالحياة المصرية ، تتلقى كل يوم ألواناً مما ينتج على يد المتعلمين الذين إن لم تعوزهم الهمة إلى العمل فقد يعوزهم المجال الذى يعملون فيه بقدر ما هيأهم التعليم النظرى الذى عكفوا عليـه . ولسوف نتقدم خطوة بعد أخرى متمادين فى العمل على زيادة عدد معسكر العاطلين ما دمنا نعكف على تعليم أولادنا على أساس النظريات لا على اساس العمليات ، وما دمنا نخرج رجالاً لا يعرفون عن طبيعة بلادهم شيئاً . ولن أكون مبالغاً إذا قلت إن ابن الفلاح الذى يتخرج فى كلية من الـكليات العليا ليس بأكثر علماً بطبيعة بلاده من زميـله ابن المدينة الذى يتخرج وإياه فى معهد واحد . فاذا لم يجدا لهما مرتزقاً أصبحا سنوى بطالة ، ولم يمتز ابن الفلاح على ابن المتحضر بشىء مما امتاز به جدودها من أهل الريف من قدرة على الانتاج والعيش مما تغل سواعدهم من ثمرات الأرض

ويخيل إلىّ ، وربما كنت على كثير من الحق فيما أتخيل ، أن الخطأ الذى نلحظه فى سياسة التعليم فى بلادنا غير قاصر على قمع ثقافتنا التقليدية عن أن يكون لها أثر فى تكويننا العقلى والخلقى ، بل إننا أضفنا إلى هذه الخطيئة خطيئة أخرى هى أننا عملنا دائماً على تضخيم المعلومات التى يتلقاها الطلبة فى مدارسنا الثانوية والـكليات . فقد يخرج المتعلم إلى ميدان الحياة العمليـة بعد حياة أمضاها فى جو من النظريات الصرفة ، وهو يعتقد أنه قد ملئ علماً بالحياة ، ثم لا يلبث أن ينكشف له الحق وإذا به يرى أن كل ما يعرفه من نظريات العلم والأدب والفن لا يكفيه رزق يومه ولا يغنيه عن الاكباب على ناحية أخرى من نواحى الحياة العملية يدرسها لتكون له فى الحياة عوناً على تحصيل الرزق . ولا شك أن ذلك يحدث ارتجاجاً عظيماً فى حياة شاب ملأه الأمل فى الحياة والزهو بما تجمع فى رأسه فى المعلومات . وما من ريبة فى أن هذه الصدمة المعنوية لها أثرها البالغ فى سلوك الشاب وتفكيره ربما لازمه طوال حياته

يعكف الشاب المصرى بين جدران معهده على ناحية نظرية

من العلوم بعيدة عن تجارب الحياة ويتلقى أنواع المعارف المختلفة ويمضي مكباً عليها عمراً حتى يكون له نظرة خاصة ويتجه بفكره وقلبه اتجاهاً معيناً وينشئ في عقليته قيماً للأشياء وفناً ينظر من طريقه في الحقائق . وعلى الجملة يتكون منه طريق معارفه تكويناً يهيئه لأن يكون وحدة مستقلة في جسم اجتماعي . فاذا استبان له الواقع وواجه الحياة بما استجمع من معارف فعلم أن للحياة طريقا آخر غير الطريق الذي صرف فيه عمره وأن لها قيماً أخرى غير القيم التي يؤمن بها . وأن لها فناً غير فنه الذي ينظر من طريقه في حقائق الوجود ، انقلب على الماضي ثائراً ومن المستقبل يائساً ، وخيل إليه أن المجتمع جنى عليه فسلبه سلاح العمل وجرده من عدة الهجوم والدفاع في ميدان المنافسة الاجتماعية . وما بالك بهذا الشاب نفسه إذا هو أراد أن يرتد إلى مصريته فيصبح فلاحا كأبيه وأن يتصل مرة أخرى بثقافة بلاده التقليدية ، فيتضح له أن علمه بطبيعة بلاده ضئيل ، وأن معرفته بطريقة الحياة فيها لا توانيه بالمدة الكافية للحياة في وسط مصري أصيل ، الفلاح سداه والفلاحة لحمته ؟

من الأخطاء التي لا ينبغي لنا أن نغفل عن وزنها وزناً صحيحاً أن تعليمنا الأدبي في الكليات ينقل إلى الأذهان صوراً من الأخلاق وفنوناً من السلوك ومذاهب من الفلسفة النفسية تختلط في عقليتنا اختلاطاً عظيما حتى لتكوّن منها مقاييس جديدة بعيدة جد البعد عن المقاييس الخلقية والسلوكية التي يؤمن بها الفلاح الساذج . فان عصور الظلم والاستبداد التي عانى فلاح مصر في خلالها الأمرين ، وتوالي الدول في الحكم على ضفاف النيل قد طبعت الخلق المصري بطابع خاص وصبغته بصبغة خاصة ، ويجب أن يعني بدرسها المصري المتعلم أوفى الدرس وأن يكب على تفهمها كل اكباب ، قبل أن يظن أنه قادر على أن يعايش ذلك الفلاح الخشن الجاهل ، وأن يعلم في أول ما يجب عليه أن يعلمه أن جهل الفلاح من جهة العلم بالنظريات قد عوضته عنه الطبيعة ذكاء حاداً وقدرة على التحايل وفطنة في إدراك الحقائق ، وأيقظت فيه قوى العقل الباطن إيقاظاً شديداً حتى يكاد يكون عند بعضهم إلهاماً في توقع الأشياء وحدوثها . أضف إلى ذلك أن طبيعة البلاد قد ثقفته بثقافة ورثها على مدى العصور ، ثقافة أحييت فيه روح اليقظة يتلقى بها الأحداث مك الهمة ثابت القلب قوي الجنان عظيم الثقة بنفسه . فان بـ تتوالى فيها دورات الزراعة كبلادنا ، ويفيض فيها النيل مواعيد محدودة ، قد غرست في نفسه بالتجربة أن الحياة فر يجب انتهازها ، وعلمته أن اهمال ساعة أو يوم قد يفوت ع رزق عام . هذا الفلاح الذي اكتملت ثقافته العملية من هـ النواحي وأمثالها ، وهي كثيرة متعددة ، هو بذاته موضوع در عميق لا يستغنى عن معرفته مصري يريد أن يعيش من فر أرض مصر وعلى ضفاف نيلها مرتزقاً بغلاتها مفتناً في إ خيراتها . ولا شك في أن هذه الناحية الضخمة من نوا ثقافتنا التقليدية مهملة في معاهدنا كل الاهمال ، فالمصريون مع الأسـ أجهل الناس بتاريخ بلادهم ، ذلك في حين أن تاريخ كل شعـ جزء لا يتجزأ من ثقافته التقليدية

فالشاب المتعلم الذي يدرس مذاهب اليونان الفلسفية وتار روما واليونان ومذاهب الأدب ومقدمة القوانين إلى غير ذ مما يتلقى الشباب بين جدران معاهدنا ، من غير أن يتصل بثقا بلاده التقليدية ، شاب مصري بالاسم لا بالروح ولا بالتقاليد هو يجهل طبيعة بلاده وخلق أهله وتاريخ العصور التي توالـ على وطنه وشكل الحكومات التي تناوبت الحكم فيه ، والميرا الذي ورثه عن أجداده الأقدمين . ولا ريبة في أن شاباً هذ شأنه إنما يخرج من معاهد العلم متعلماً جاهلاً ، وإن شئت فقل يخرج متعلماً مشحون الذهن بالكثير من المعلومات التي من شأنها أن تفصله عن طبيعة بلاده وتصيره في محيطه غريباً ، كأ غلطة جديدة في طبيعة شيء قديم . ومن هنا يكون عجزه عن الكفاح في الحياة وعن الاتصال بالأرض التي أنشأته وأنشأت السلالة التي انحدر منها منذ أقدم عصور التاريخ

والمحصل أننا مشرفون على أزمات اجتماعية أساسها الظاهر الآن كثرة العاطلين من المتعلمين الذين فصل التعليم بينهم وبين ثقافة بلادهم التقليدية فأصبحوا فيها غرباء ، وسنعالج في المقال التالي مجمل ما صورنا حتى الآن من نقائص حياتنا الاجتماعية من حيث علاقتها بالتعليم

(يتبع) اسماعيل مظهر